

الإفتتاحية: السيكولوجيا من منظر عربي

أ.د. الغالي أحرش - فاس، المغرب

a-rhali@caramail.com - aharchaou_rhali@yahoo.fr

هل صحيح أن السيكولوجيا التي تتداولها وتعامل بها في الوطن العربي قد تقادمت وشاخت وربما أفلست من حيث مصادرهما ومرجعياتهما وتصوراتها إلى الحد الذي أصبح معه الأمر يتطلب تغيير المسعى لصياغتها على أسس جديدة تماشى ومستجدات السيكولوجيا المعاصرة وخاصة في أبعادها المعرفية. ما هي مقومات هذه السيكولوجيا وخصائصها العلمية والتطبيقية؟ ما هي مشاكلها ومعوقاتها وآفاقها المستقبلية في ظل المرتكبات النظرية والمستجدات المتوولوجية للسيكولوجيا المعرفية الراهنة؟ الأكد أن انطلاق ما ينعت بالسيكولوجيا الحديثة ذات الطابع المعرفي كاتجاه جديد في علم النفس في أوائل الستينات من القرن العشرين قد غير بصورة جذرية طريقة تصورنا للنفس الإنسانية وأسلوب دراستها. فبراديجمها paradigm المعرفي الذي يعتبر الذهن كوع من البرجة المعلوماتية المستعملة للرموز المجردة، يشير بوضوح إلى أن ثورة معرفية حدثت فعلا في مجال علم النفس. وهي الثورة التي رافقتها تحولات عميقة وخاصة على مستوى اتخاذ الذهن في معناه الواسع موضوعا ومعالجة المعلومات مسعا منهجيا وبالتالي الإقرار بتجاوز عدد من السيكولوجيات السابقة بما فيها السلوكية. فالواقع أن هذه السيكولوجيا التي لم تكن تحظى بأي حضور قبل أربعة عقود من الآن، أصبحت هي المهيمنة حاليا على خارطة علم النفس. فقد أضحت تشكل الثورة المعرفية القائمة الذات التي لا يتردد أغلب علماء النفس في اتخاذها إطارا أساسيا للتعبير عن علم النفس بأكمله. وتحدد أبرز مقومات وخصائص هذه السيكولوجيا التي أضحت تميز مكونات وتوجهات المنظومة السيكولوجية الحديثة في العناصر الثلاثة التالية:

1. الموضوع والمباحث

واللغة والتفكير وحل المشاكل ثم اتخاذ القرار. وبالتالي تعويض التمييز القديم مثلا بين الذاكرة البعيدة المدى والذاكرة القريبة المدى بالتفريق بين الذاكرة الدلالية التي تقوم بتخزين المعارف وتنظيمها وذاكرة العمل التي تختص بالمعالجة الوقتية العابرة Transitoire؛ بحيث تبلورت دراسة الذاكرات المتخصصة مثل الذاكرة اللفظية والصوتية والإدراكية. وإذا كانت اللغة أصبحت لوحدها تشكل الحقل المفضل للدراسة بعدما كانت شبه مغيبة، فإن موضوعات أخرى مثل سيرورات الانتباه والحكم والقرار ودور الانفعال والعواطف في المعرفية ثم اختلال الاشتغال المعرفي في حالات الاضطراب والشيخوخة أضحت هي الأخرى تحظى بمقعد الشرف في هذه السيكولوجيا التي يحكمها ويؤطرها البراديجم المعرفي.

فيخصوص موضوع علم النفس لم يعد يتحدد أصلا في الأشياء الخارجية القابلة للملاحظة من قبيل السلوكيات والمثيرات والوضعية وعلاقتها، لكون هذه الأشياء ليست إلا وسائط أو وسائل متوولوجية لدمج هذا الموضوع في المجال الكلي ومقاربة مكوناته وعناصره، بل أضحي يتمثل في مجمل الأحداث والوقائع التي تحدث وتحصل في "رأس" الكائن البشري. وبذلك أصبح علم النفس علما للذهن بعدما كان يشكل علما للسلوك. فطبيعة الموضوع صارت تتحدد في الأنشطة الذهنية كما تحدث في أذهان الكائنات الإنسانية، وبالتالي في كيفية معالجة المعلومات واكتساب المعارف وتخزينها واسترجاعها واستعمالها.

2. المنهج والتقنيات

يمكن حصر خاصيات المنهج السيكولوجي من منظور السيكولوجيا المعرفية المعاصرة في العناصر الخمسة التالية:

(أ) توحيد المسعى المنهجي العام عوض التمييز بين مناهج متعددة وتنوع بتعدد وتنوع ميادين علم النفس. فكل هذه الميادين تستند اليوم إلى نفس المسعى المنهجي الذي هو تجريبي، بحيث أن القول بسيكولوجيا تجريبية كميدان مستقل ضمن ميادين علم النفس هو قول مردود ولا أساس له من الصحة في المفهوم المعرفي للسيكولوجيا الحديثة. وهذا ما يؤكد لدى غالبية علماء النفس المعاصرين توحيد خارطة علم النفس من خلال تحطيم الحدود المصطنعة بين قاراتها الفرعية وتقريب

وقد صاحب هذا التغيير في موضوع الدراسة بزوغ لمفاهيم جديدة كالتمثل والمعالجة والاشتغال والمراقبة والتضبيب، وهي المفاهيم التي يرتبط بعضها بأسلوب استقبال المعلومات مثل التصفية والترميز Filtrage et Encodage وبعضها بصيغة المعالجة مثل ذاكرة العمل والمعالجة التصاعدية في مقابل المعالجة التنازلية، السيرورة الأتوماتيكية في مقابل السيرورة المراقبة، المعالجة التسلسلية في مقابل المعالجة الموازية، وبعضها باتخاذ القرار والتدخل مثل القصدي والغاية والتخطيط، وبعضها يتصل أخيرا بالاشتغال المعرفي في حد ذاته مثل مفاهيم الوعي والمراقبة والمطامعرفية.

وبخصوص التحول الذي لحق بمباحث علم النفس فقد تجلى في التركيز على السيرورات المعرفية العليا المتمثلة في الإدراك والانتباه والتعلم والذاكرة

حقولها التخصصية التي كانت جد متباعدة .

(ب) ضرورة اعتماد النماذج والنظريات المُصَغَّرَة
Micro-théories قصد نمذجة الأنشطة السيكلوجية، سواء في بعدها الاستقرائي Inductif المبني على الانتقال من الجزئي الخاص (الوقائع والأحداث) إلى الكلي العام (التصورات والفرضيات النظرية)، أو في بعدها الاستنباطي Déductif أو الافتراضي الاستنباطي Hypothético-déductif المبني على الانتقال من المفاهيم والأفكار إلى المعطيات والوقائع .

(ج) العمل بنفس المسعى المنهجي المتداول في سائر العلوم، بحيث أن ما تم التأكيد عليه في البعدين السابقين يوضح بجلاء تام أن المسعى المنهجي المعتمد في السيكلوجيا الحديثة هو مسعى كل العلوم . وعلى هذا الأساس يمكن مقارنة هذه السيكلوجيا ذات التوجه المعرفي بأي مجال من مجالات البحث، إذ أن طريقتها التي هي طريقة جميع العلوم تركز من جهة على إعداد نماذج تفسيرية انطلاقاً من الملاحظات المنجزة ومن جهة أخرى التحقق من صدق هذه النماذج من خلال مواجهتها بالأشياء القابلة للملاحظة . فالفرق الوحيد الذي ما يزال قائماً بالنسبة للعلوم المسماة بالدقيقة يتجلى في إمكانية إعادة إنتاج الظواهر المدروسة .

(د) المسعى العلمي ومسألة الكونية والتعميم

كما سبق التأكيد على ذلك، فإن الكيفية المثلى لتحقيق التطابق المطلوب بين النماذج النظرية والملاحظات الأيمبريقية تتحدد أساساً في التجريب l' experimentation . لكن المؤكد أيضاً هو أن الملاحظة في الميدان أو في وضعيات ملموسة يمكنها في بعض الحالات أن تستخدم بشكل جيد حتى بالنسبة للبراديجم المعرفي . فكل ما يهدف إليه الباحثون المتبنون لهذا البراديجم هو الوصول إلى خلاصات كونية بالمعنى المنطقي للفظ، مثل " يمكن لهذه الأحداث الذهنية أو تلك، والتي تتمثل مظاهرها القابلة للملاحظة في هذه السلوكيات أو تلك، أن تحصل بالنسبة لأي فرد ينتمي إلى الفئة المنطقية (س) ولكن شريطة أن يتحقق ذلك ضمن سياق أو وضعية من الوضعيات المبنية على الفئة المنطقية .

(هـ) تقوية الترسانة التجريبية وإغناء الأدوات الكلاسيكية بتقنيات جديدة تندرج في إطار ما يسمى باختبارات التشخيص المعرفي والمحاكاة المعرفية وبرامج المساعدة المعرفية والمعالجة المعلوماتية .

3. الطبيعة والواقع

لمناقشة طبيعة الواقع (الموضوع) الذي تدرسه السيكلوجيا المعرفية المعاصرة يمكن الاعتماد على المنظورين المتكاملين التاليين:

الأول يرى أن الطبيعة العميقة للأنشطة الذهنية كما تحدث في عقول الكائنات الإنسانية، تتحدد أساساً في معالجة المعلومات وبالتالي في اكتسابها وتخزينها واسترجاعها واستعمالها . فهذا المنظور يجسد بما فيه الكفاية الحدود التي يقارب ضمنها البراديجم المعرفي الموضوع النفسي، بحيث أنه لا يولي إلى حد الآن أي اهتمام لكل ما يرتبط بالعاطفة، بالدوافع، بالانفعالات وباختلالات الشخصية . وهذه مسألة كثيراً ما يؤسف لها رغم أن الأمر الواقع هو الذي أصبح يفرض نفسه .

فالتمييز بين الوجداني والمعرفي وبالتالي التركيز على مقارنة مكونات ومظاهر هذا الأخير أصبح يشكل المعطى الواقعي للبحث الذي عرفته العقود الثلاثة الأخيرة . وهو المعطى الذي ينظر إليه كثير من الباحثين كإجراء مقبول على اعتبار أنه ليس من الخطأ، وخاصة من الناحية المنهجية، اعتماد هذا التمييز المؤقت لمعالجة المشاكل بصورة تدريجية، وذلك في انتظار الفترة اللاحقة التي ستشهد بدون شك بلورة أمثالات ونماذج وجدانية - معرفية Affectivo-cognitifs أو معرفية وجدانية، والتي بدأت ملامحها تتأسس وتتعرز في الفترة الأخيرة من خلال أعمال ودراسات منتظمة الاطراد ترجمها وقائع كثيرة .

المنظور الثاني يرى أنه إذا كان النشاط الذهني، كما جاء في المنظور الأول، يتحدد في معالجة المعلومات، فإن هذا النشاط هو في حد ذاته نشاط للدماغ . وهنا يطرح السؤال حول الدلالة الفعلية لهوية العلاقة بين نشاط الدماغ ونشاط الذهن؟. الواقع أن الحل النهائي لهذا المشكل لا وجود له في الوقت الحالي . فكل ما هو موجود إلى الآن هو هذا النوع أو ذاك من النزعات الاختزالية التي تأمل تعويض السيكلوجيا بالبيولوجيا وبالتالي اختزال نشاط الذهن في نشاط الدماغ كما يتجلى ذلك عند بعض البيولوجيين رغم الرفض الصريح والواضح لمثل هذا الاختزال من لدن السيكلوفيزيولوجيين والبيوعصبيين .

4. الأفق المستقبلية

الراجح أن مستقبل السيكلوجيا في ظل البراديجم المعرفي سيتوقف من جهة على علاقاتها العلمية مع تخصصات العلوم المعرفية وفي مقدمتها علوم الأعصاب Les neurosciences، ومن جهة أخرى على الكيفية التي ستطرح وتحل بها عدداً من المسائل المطانظرية ذات الطابع الإستمولوجي، وعلى رأسها ثلاث إشكاليات أساسية: أولها ترتبط بفرضية فودور Fodor (1987) حول قابلية الذهن Modularité de l'esprit وخصايته الحاسوبية وكل ما يصاحب ذلك من استلزامات معرفية . وثانيها تتعلق بمعرفة ما إذا كانت التفسيرات السيكلوجية للمعرفية قابلة لأن تحتل بالتدريج في تفسيرات بيوعصبية، وبالتالي إلى أي حد يمكن "تطبيع Naturaliser" الذهن؟. أما ثالثها فتخص مسألة الاختزالية البيوعصبية هاته التي أضفت عليها تطورات السيكلوجيا العصبية الحديثة، وبالأخص تقنيات التصوير الدماغية Imagerie cérébrale، خصوصاً أكبر ودعمت اعتقادها القائل بأن التفسير البيوعصبي عوض التفسير السيكلوجي، هو الذي سيسمح بتفسير طبيعة المعرفية وخصاياتها الجوهرية . بمعنى أن علوم الأعصاب هي التي ستضيء طريق السيكلوجيا في المستقبل . وفي اعتقادنا أن العكس هو الصحيح لأن علم النفس هو الذي سيضيء طريق هذه العلوم والمعرفية عامة .

إذن في إطار الاحتكام إلى ما يشبه هذه المقومات والخصائص التي تنفرد بها الوضعية الحالية للسيكلوجيا المعرفية المهيمنة على خارطة علم النفس، تندرج أهم الاستفسارات

